سهيل إدريس والآداب وعرب ٤٨

فوزي الأسمر*

لم أقابلْ سهيل إدريس في حياتي. فعندما زرتُ بيروت لأول مرة للمشاركة في «المؤتمر القومي العربي،» قيل لي إنّه غير موجود. ولكنْ كنتُ أعرف سهيل إدريس من كتاباته وترجماته، وأعرف مدى تأثيره في مثقفي ٤٨.

هناك جوانبُ كثيرة لمثقّفي ٤٨ غيرُ معروفة في العالم العربي. فعندما قَدَّمَنا إلى العالم العربي الأديبُ الشهيدُ غسّان كنفاني من خلال كتابيْن عن أدب المقاومة في فلسطين المحتلة [صدر أحدُهما عن دار الآداب بالعنوان نفسه ـ الآداب] كان هدفه الأساس إبراز الإنتاج الأدبي المقاوِم. ولكنّه لم يَطْرح السؤالَ المهمّ: كيف يثقّف هؤلاء المحاصَرون تحت الاحتلال أنفسَهم، وكيف يمكن أن يصلوا إلى هذا المستوى من الإنتاج وهم معزولون؟

لا بدّ هنا من وقفة حول هذه النقطة بالذات. ففي أعقاب نكبة ١٩٤٨ وَجَدَ العربُ تحت الاحتلال أنفسَهم من دون قيادة فكرية أو أدبية، ولا اتصالاتٍ مباشرةٍ مع الحياة الثقافية في العالم العربي. كان شراءُ أية كتب أو مجلاّت عربية تَصْدر في البلاد العربية ويَدْفع ثمنَها الشخصُ في داخل فلسطين ٤٨ يُعتبر تخطِّيًا للقانون، ويحاكَم على أساس «التعامل الاقتصادي مع العدوّ.» وهكذا فَرَضَتْ حكومةُ إسرائيل على عرب ٤٨ حصارًا ثقافيّاً (إضافةً إلى المشاكل الأخرى).

وكان لا بدّ من إيجاد وسيلةٍ لتثقيف أنفسنا وكسرِ هذا الحصار، وَوَجدْنا نافذةً يمكن استغلالُها في هذا المجال. فقد تبيّن أنّ مكتبةَ الجامعة العبرية في القدس تحتوي على مجموعة ضخمة من الكتب والمجلاّت العربية الحديثة، ويحقّ لطلاّب الجامعة الاستقراضُ منها. فبدأتْ عمليةُ الاستقراض: يقوم الطالبُ باستقراض ديوان شعر جديد على سبيل المثال، ويقوم أحدُنا أو أكثر بنقله خطّيّاً، ومن ثم نتداوله. أما إذا كان الكتابُ كبيرًا، فقد كان يقرأه عددٌ منّا، ويقوم بعضُنا بتلخيص الأفكار الواردة فيه.

استمرّت هذه الحال حتى عام ١٩٥٨. خلال هذه الفترة لم يكن أمام القارئ العربي في الداخل سوى عدد محدود من كتب مخلّفاتِ ما قبل النكبة، ومجلاّت وجرائد محلّية. وفي مقدمة تلك كانت مجلة **الجديد**، وجريدة **الاتحاد**، ومجلة **الغد** للشبيبة، وكانت تَصْدر جميعُها عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي، ولعبتْ دورًا مهمّاً في حياة عرب ٤٨. ومن ثم كانت هناك جريدة **اليوم**، وبعدها جريدة **الأنباء** التي كانت تعبّر عن موقف حكومة إسرائيل وفيها محاولاتٌ لغسل الدماغ العربي، ومجلة **حقيقة الأمر** التي كانت تُصدرها الهستدروت وتسير على نهج الجريدتين ذاته. ثم كانت هناك مجلات خاصة: **الرابطة** و**المجتمع** و**الرائد**. ورغم هذا الحصار فقد انتشرت الأمسياتُ الشعريةُ بكثافة، وكان الشعراء فيها يعبِّرون عن مقاومتهم للتمييز ضدّ العرب ومحاولة طمس قوميتهم وثقافتهم وتاريخهم. وفي أعقاب ثورة ١٩٥٢ وظهور القائد جمال عبد الناصر، وصل مدُّ الفكر القومي العربي إلى الداخل، وتكاثَرَ الإنتاجُ الأدبي، خصوصًا الشعر، وتحطّمتْ عقدُ الخوف التي كانت تحاول حكومةُ إسرائيل فرضَها على عرب ٤٨.

ورغم كلّ ذلك فقد بقي عربُ ٤٨ غيرَ منخرطين في الحياة الأدبية في العالم العربي. وفي أواخر الخمسينات صدر كتابا غسان كنفاني، وكانا النافذة الأولى التي أَطَلّ بها العالمُ العربي على أدب المقاومة كما ذَكَرْنا. ولكنْ لم يُفتح البابُ أمام أدبنا إلاّ في اعقاب نكسة ١٩٦٧ حيث أطلّ العالمُ العربي وبكثافة كبيرة على حياتنا الأدبية والسياسية، ونَشَرَ العديد من الأبحاث.

في عام ١٩٥٨ تأسّستْ في إسرائيل أولُ دار نشر للكتب العربية، أسّسها حزبُ مَپام الصهيوني الاشتراكي، لأهداف سياسية طبعًا، ولكنّها كانت بابًا جديدًا يُفتح أمام عرب ٤٨. كان اسمُ دار النشر هذه «شركة الكتاب العربي.» وبدأت الشركة بطباعة كتب حديثة مستوردة من العالم العربي: رواية **الأرض** لعبد الرحمن الشرقاوي، **من هنا نبدأ** لخالد محمد خالد... وكلّ شهر كانت هذه الشركةُ تصدر كتابًا جديدًا. ولأول مرة منذ نكبة عام ١٩٤٨ بدأ العربُ في الداخل يتمتّعون بقراءة كتب جديدة. ثم قرّرت الشركةُ إصدارَ مجلة أدبية سياسية اسمُها **الفجر**، صدر العددُ الأول منها في

---

* ـ كاتب وشاعر فلسطيني مقيم في واشنطن.

شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٨. كان محرِّرها البارز هو الشاعر راشد حسين، ولاحقًا كنتُ من هيئة التحرير فيها. وقد قامت المجلة بالربط بين أدب الداخل والخارج، ومن كتّابها في الداخل: محمود درويش وسميح القاسم وراشد حسين وشكيب جهشان وصالح برانسي وبولص فرح ونجلاء الأسمر. وانتشرت المجلة بشكل واسع.

وبالعودة إلى الآداب فقد لعبتْ هذه المجلة دورًا رئيسًا في حياتنا، إذ كنّا ننقل عنها المقالات والأشعارَ. وأول عدد من مجلة الآداب وصل إليّ كان عدد كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩. وقد طلبتُ حينها من خالتي، التي كانت قد طُردتْ في عام ١٩٤٨ من مدينة حيفا واستقرّت في بلدة برمّانا، أن تشتركَ لي بالمجلة ومن ثم ترسلها إلى ابن خالتي في ولاية تكساس، فيقوم بدوره بإرسالها إليّ، وذلك لتخطّي قانون «التعامل مع العدوّ اقتصاديًا،» إذ إنني لم أدفعْ ثمنَ الاشتراك.

وكان لسهيل إدريس دورٌ في حياتنا الأدبية عن طريق القصص القصيرة والراويات والترجمات. ففي العدد الأول من مجلة **الفجر** نشرتُ قصة «أخي الشيخ.» وفي العدد التاسع نشرْنا مقال محيي الدين صبحي وعنوانُه «**الخندق الغميق** ومدى تعبيرها عن تمرّد الجيل.» ثم نشرنا مقال سهيل إدريس «الشِّعر والمصير العربي.» كما نشرنا قصصًا لسهيل إدريس، ومنها: «نيران وثلوج» و«أشواق» و«كلّهنّ نساء» وغيرها. ثم أصدرت الشركة عامَ ١٩٦٠ رواية **الحيّ اللاتيني** بجزئين. وفي السنة نفسها صدر كتاب الفيلسوف الفرنسي جان پول سارتر، **عارُنا في الجزائر**، مع مقدّمة لعايدة مطرجي إدريس. وفي أعقاب نشر رواية **الحيّ اللاتيني** نَشَرَت **الفجر** مقالاً حولها كَتَبَه د. محمد مندور. ثم نشرتْ أيضًا مقالاً لكاتبٍ محلّي هو د. أحمد توفيق ريناوي، عنوانُه: «سهيل إدريس الكاتبُ الصادق.»

وإذا أضفنا إلى كلّ ذلك قراءةَ الكتب التي كَتَبَها وتَرْجَمَها سهيل إدريس، خصوصًا للفيلسوف الفرنسي سارتر وللكاتبة سيمون دو بوڤوار وفرنسواز ساغان وغيرهم، استطعنا أن نعرف مدى تأثير سهيل إدريس في سير تفكير مثقفي عرب ٤٨.

واشنطن

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

رحيل آخر قمم الأدب والإنسانية والتواضع

فاطمة جحلاط*

ماذا نقول عند الرحيل إلاّ: وداعًا؟ ماذا نقول عند اختفاء القمر إلاّ: سيعود؟ والدكتور سهيل إدريس قمةٌ من قمم العطاء، ومنبعُ الإنسانية، ورائدُ التواضع، لن يعود أبدًا. انتقل من دنيانا التافهة المنافقة المتذبذبة إلى عالم الأمان والخلود والحقّ، وإلى عدلٍ عظيمٍ نيِّرٍ لا وجود ولو لذرّاتٍ منه بين أرجاء الكوكب الأرضي.

اختفى نجمٌ ساطعٌ من دنيا الأدب، لن يعوَّض أبدًا. سيمكث إلى نهاية الكون علامةً بارزةً في تاريخ الأدب العربي. إنسانٌ مثاليّ نادر في زمن أنانيّ جبّار مغرور. كاتبٌ لامعٌ لا يخادع الحرفَ، لا يجامل الكلمات، لا يطأطئ قلمَه للطغاة. منذ سنوات بعيدة حَمَلَ الهمّ العربي فوق أكتافه، ورافقه أينما ارتحلتْ به الأيام. وهكذا يكون الكاتبُ الصادقُ مع نفسه، ومع قرّائه. وهو يدري أنّ الكلمة أمانةٌ: أمانةٌ أمام اللّه، وأمام النفس، وأمام التاريخ. ويعلم أنّ نهايةَ الإنسان محتومة مهما امتدّت به الأعوام، ولا بدّ أن يأتي يومٌ ويحاسَب فيه عن كلّ رأيٍ أبداه. وكيف يكون مصير المرءِ إنْ صادَقَ الدنيا (والأكابرَ والأقوياءَ والجلاّدين) على حساب الحقّ؟! أكيدٌ سيلقى في ذلك اليوم العقابَ الأكبر.

لقد تعلّمنا منه الكثيرَ، ومن منبعه الأدبي الأصيل شربْنا حتى الثمالة حبَّ الوطن العربي الكبير، إلى أن صار هذا الوطنُ يتردّد مع نغمات قلوبنا، وامتزج بدمائنا.. وما زلنا نسير على دربه، ولن نفرِّط في شبر منه أبدًا، ولن نتركَه

* ـ كاتبة جزائرية.

للأعداء وشبهِ الأصدقاء، بل سنناضل بكلّ ما نملك من طاقات إبداعية من أجل أن نراه على الدوام في قمّة شامخة. لقد تعلّمْنا الكفاحَ، وحمايةَ الوطن، من قراءاتنا الكثيرة لكتب سهيل إدريس ومقالاته القيّمة. وسنبقى أوفياءَ على الدوام لعهده. سنَذْكره في كلّ مكان، وعند كلّ حديث، بأحبّ ما يُرضي الميِّتَ في قبره، وبأروعِ ما ترتاح إليه روحُه العطرة. وسنظلّ مجرّدَ تلاميذَ صغارٍ لهاته الشعلة الأدبية المضيئة في كلّ أركان الأرض العربية.

ولا أنسَى ذلك الموقفَ الإنسانيَّ العظيم الذي يصعب أن يتكرّر مع كلّ الكتّاب، وخصوصًا كتّاب هذا الزمن الذي انجرف أغلبيتُهم وراء تيّار الغرور، فوضعوا جدارًا سميكًا بينهم وبين القرّاء. سأذكر إلى آخر يوم من عمري تلك الهدية التحفة (**الحيّ اللاتيني**) التي وصلتني من كاتبنا الكبير في منتصف التسعينيات مع إهداءٍ مميّزٍ تفوح منه رائحةُ التشجيع على الكتابة رغم صعوبة الدرب. وقبل وفاته بيومين قلتُ لنفسي: «راسلتُ ذاك الكاتب، وتلك الشاعرةَ من لبنان، وطلبتُ آخرَ كتابٍ لهما (لفقدان هذه النوعية من الكتب في بلادي)، ولا حياة لمن تنادي!» ثم قلتُ: «ما أروعَ العظماء، وما أتعسَ هاته الأرض العربية التي بخلتْ علينا بمثل هؤلاء العباقرة المشاهير الشديدي التواضع مثل الدكتور سهيل إدريس.»

وداعًا إلى لقاء لا ندري إنْ كان قريبًا أو بعيدًا، لكنّه حتمًا آتٍ، وكلُّنا إلى قبورٍ مبعثرةٍ هنا وهناك. ليتنا ندرك ذلك قبل فوات الأوان، لنجعل القلمَ نزيهًا شامخًا في الأفق!

الجزائر

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

آه لو تصل هذه المقالة إلى د. سهيل!

رشاد أبو شاور*

أخي وصديقي سماح، أبكيتني في افتتاحيتك (الآداب ١ ـ ٢٠٠٨/٣)، وأضحكتني، وجعلتني أستعيد زمنًا ممتدّاً، منذ عرفنا المعلّم سهيل إدريس ورفيقةَ عمره عايدة.

هذه ليست مقالة؛ هذه سيرةُ روحٍ، وإبداعٍ، وسيرةُ أجيالٍ وأمّةٍ تجسّدتْ في رجلٍ بَنَى وأعلى البنيانَ.

الدكتور سهيل، وأنا أقرأ افتتاحيتَكَ، رأيتُه بوجهه الطفولي، ومَكْره المحبَّب، وشرودِه أحيانًا، وَصفَناتِه، وضحكاتِه القلبيّةِ الصافية، ومواقفِه التي شَهِدْتُ بعضَها عن كثب. بدا وكأنّه يَطّلع من بين كلماتِك، ويَضْحك فرحًا، متباهيًا بابنٍ جديرٍ بالإعجاب والاحترام.

يا سماح، هذه كتابةٌ فيّاضةٌ بالحياة. وهذا ما يليقُ بمسيرةِ د. سهيل إدريس، وبشخصه، وإبداعه.

عمّان

* ـ روائي وكاتب فلسطيني.